السيولوجيا اي علم الاجتماع الانساني

ملخصة من كتب الفيلسوف هربرت سبنسر بقلم نسيم افندي بربارى

تمهيد

السيولوجيا علم يبحث عن اصل الاجتماع الانساني وانتظامه وارتقائه خصوصاً فيما يتعلق بالسياسة والمعادلات. والباحثون فيه كثيرون من ايام افلاطون وارسطو غير ان ابحاثهم كانت مقتصرة على ذكر ارائهم الخاصة. واول من جعله علماً العالم كونت الفرنساوي ثم جاء بعده الفيلسوف هربرت سبنسر الشهير فألف فيه مجلدات ضخمة سماها بالفلسفة التركيبية وقد اورد المشابهة بين المخلوقات الحية وبين الشعوب والامم من حيث التولد والنمو والارتقاء والتقهقر. فالشعب حسب مذهبه حيٌّ تام قوامهُ انواع السلطات ألتي تديرهُ كالسلطة السياسية والدينية والعسكرية والتجارية. ووظائفهُ شعورهُ وافكارهُ وفنونهُ. وهو يحيا ويموت بحسب موافقتهِ لاحوال الزمان والمكان اي انهُ خاضع لناموس الانتخاب الطبيعي بدأبهِ التنازع لاجل البقاء شأن كل المخلوقات الحية. ولسبنسر الفضل الاكبر على مذهب النشوء لانهُ اول من اطلقهُ على كثير من المباحث العلمية

ويظهر مما تقدم ان علم السيولوجيا واسع جداً يحيط بتاريخ البشر منذ نشأتهم. ومواده كثيرة لا تحصى ولكنها منتشرة متفرقة في اماكنها وازمنتها حتى لا يمكن الجمع بينها الا بشق الانفس. ويقرب ان يكون درسها مستحيلاً للاسباب التالية وهي

اولاً. قلة عدد التواريخ الصادقة ألتي يمكن الاعتماد عليها في البحث عن احوال الشعوب الغابرة. فانهُ يصعب على المرء ان يكتب خبراً تاريخياً ولا يمسخهُ او يحرفهُ حسب ميلهِ وغرضهِ ومصلحتهِ الخصوصية. وقد لا يكون ذلك عن سوء قصد بل عن اهمال او عن ميل نفسي لا يمكنهُ التغلب عليهِ فلا يرى في الحادثة ألتي يريد ذكرها الا ما يوافقهُ. كما اذا مرض لنا عزيز فاننا نعلق الامل بشفائهِ ولو يشست منهُ الاطباء ونظر الى كل علامة صغيرة من علامات الصحة بالنظارة المكبرة ونتعامى عن دلائل المرض الشديد. وايضاً ان درس هذا العلم لا يتم بدرس اجزائهِ منفصلة بعضها عن بعض بل بدرسها معاً ومقابلتها وتتبع الحوادث الى اصولها. ويدعي ان حوادث التاريخ ليست بنت ليلتها بل قد نضطر احياناً ان نرجع الى العصور الغابرة لمعرفة سبب امرٍ واحد منها

والسبب الثاني في شخص المؤرخ فان كل واحد يقيس اعمال غيره وافكاره على اعماله وافكاره كالام التي تجبر ولدها الصغير على الجلوس هادئاً كالبالغين وهي لا تدري ان عقله يميل الى رؤية كل شيء ولمسه باصبعه وان هذا شأن الاطفال كلهم وقد كان شأنها ايضاً لما كانت في سنه . ثم ان بعض الناس لا يمكنه النظر الى امر الا من جهة واحدة مع ان درس الاجتماع الانساني يقتضي النظر الى الامور من جهاتها كلها واعتبار كل العوامل والمؤثرات التي طرأت عليها . وعدا ذلك فللاهواء النفسانية تأثير عظيم في تقرير الحقائق والحكم على الامور بقطع النظر عن كونها حسنة او رديئة في نفسها . فاذا اعجب الناس بنجاح امر غفلوا عن مساوئه مهما كانت عظيمة واذا ابغضوه استهجروا كل اعماله مهما كانت غايتها حميدة . وهذه الاهواء إما سياسية او دينية او وطنية وسيأتي الكلام على كل منها بالتفصيل . واذا اتضح ما تقدم نبحث عن كيفية تدريب العقل واعداده لدرس هذا العلم اذ لا يمكن درسه بغير درس الطبيعة البشرية ودرسها يستلزم درس نواميس الكون ولا يتيسر لهم هذه النواميس ما لم تدرك نواميس الحياة

ولا بدّ لنا قبل الخوض في هذا الموضوع من ان نسلم مأدبة علم الاجتماع الانساني وارل حقيقة نلقاها في ان صفات المجموع تتوقف على صفات الافراد . فلو بنى انسان حائطاً من حجارة مربعة لكان شكله مختلفاً عما لو بناه من حجارة كروية . وما نراه في الجماد نراه في الحيوان والنبات فان الانواع الدنيا منها تتكاثر بالقسمة وكل قطعة منها تنمو وتصير مثل الحيوان او النبات الذي انفصلت عنه دلالة على ان فيها مبدأ الصفات المقومة لنوعها . وقولنا ان صفات المجموع تتوقف على صفات افراده يتناول الصفات الجوهرية لا العرضية غير ان المجموع لا يلزم خطة واحدة دائماً لان الاحوال الخارجية تؤثر فيه كثيراً ولكن مهما كان تأثيرها شديداً لا تجعل له خواص جديدة منافية لخواص اجزائه

والذي يصدق على الكون بامره يصدق على الانسان ايضاً . فجميع افراد الناس متشابهون في احوال عديدة فهم يحتاجون الى القوت ولهم مطالب اخرى متشابهة وهم عرضة للمؤثرات الجسدية كالآفات والامراض وللمؤثرات النفسانية كالروح والحزن وهذه الصفات التي نراها ظاهرة في الافراد تظهر ايضاً في الشعوب التي تتألف منها فاذا اتفقت صفات افراد شعبين اتفقت صفات الشعبين العمومية واذا اختلفت صفات افراد شعبين اختلفت صفات الشعبين ايضاً

ويظهر من ذلك انه لا بدّ من علم يبحث عن العلاقة بين الشعب وافراده وكيف ان احوال المتوحشين العقلية والنفسانية منعت اجتماعهم معاً بخلاف المتمدنين الذين صاروا شعوباً

كبيرة . وان لكل اجتماع بشري صفات عمومية يشترك فيها مع بني جنسهِ واخرى اخص منها يشترك فيها مع الذين من نوعهِ واخرى خاصة بهِ مصدرها صفات افرادهِ . وكل هذه يمكن تعليلها بحسب احوال ذلك المجتمع وعلاقاتهِ بغيرهِ من المجتمعات البشرية

ولقائل يقول ان علاقة الاسباب بمسبباتها في المسائل الاجتماعية بعيدة ومعقدة جدًّا حتى يستحيل احيانًا ان نعرف نتائجها قبل الوصول اليها . فربما سعى الانسان لغاية معلومة فاتت النتيجة على غير ما امَّل . فان نبوليون الثالث شهر الحرب على بروسيا ليمنع الاتحاد الالماني فكانت نتيجتها ذلك الاتحاد بعينهِ . وامثال هذه الحوادث كثيرة جدًّا ولذلك يستحيل علينا ان نضع علمًا يلمُّ باطراف المسائل الاجتماعية والقواعد والنظامات التي تسير عليها كالعلوم التي تلم باطراف المسائل الطبيعية

واعتراض مثل هذا يخطر في بال كثيرين من الذين ينكرون وجود علم الاجتماع الانساني لجهلهم ماهيتهُ وقد فاتهم ان العلوم الطبيعية مع ما بلغت من التدقيق لم تخرج قوانينها ونظاماتها عن كونها كليَّة لا تتناول كل الجزئيات التي لا تقع تحت الحصر . مثال ذلك اذا اردنا نسف بناء بالبارود فاننا نعلم من فن الميكانيكيات انهُ اذا نسفت مادة صلبة بالبارود ارتفعت اجزاؤها في الهواء الى ارتفاعات متفاوتة ثم وقعت على الارض ضمن دائرة معلومة وفي اوقات مختلفة . وان مسيرها في الهواء اشبه بمسير السيارات او المقذوفات اي ان كلاً منها يرسم خطًا هندسيًا منحنيًا وهذه المنحنيات كلها من نوع واحد ولو كانت مختلفة الاتساع وهذا غاية ما يصل اليهِ علم الميكانيكيات في ايضاح كيفية مسير الاجزاء المتطايرة ومعها دققنا فيهِ فلا يمكننا ان نعرف كيف يسير كل جزء على حدتهِ اي ان نقول ان الجزء الذي على يسار اللغم يطير الى علو كذا ويرسم دائرة نظرها كذا ويقع على الارض الى بعد كذا من محل اللغم والجزء الذي على يمينهِ يسير على الخطة القلانية وهلمَّ جرًّا . وهاك شاهدًا آخر يوضح المراد باكثر جلاء

اذا رأى الانسان طفلاً صغيرًا فلا يمكنهُ ان يعرف ما اذا كان يموت في طفوليتهِ او يصاب بالحصبة او الدفتيريا او بكلتيهما ويشفى او يلتهمهُ غرقًا او حرقًا او يقع على الارض من يد مرضعتهِ فتنكسر يدهُ او رجلهُ او يكون نصيبهُ التقدم والنجاح في شبابهِ او تحنوهُ الايام ويعاكسهُ الزمان فيفشل وتحبط مساعيهِ . كل هذه وغيرها مما يدخل في حياة الافراد لا يمكن الانباء بهِ قبل وقتهِ

اما اذا صرفنا النظر عن الجزئيات ونظرنا الى الكليات رأينا امامنا بابًا واسعًا لمعرفة

المستقبل . فاذا كان في الطفل ميل الى الرياضيات او الموسيقى او التصوير نشأ ذلك قبل ان يصير في الخامسة من عمره . ويمكننا ايضاً ان نعرف وهو دون العاشرة ما اذا كان يلتذ حباً لاهله برًّا بوالديه يميل الى المعيشة العائلية وتربية الاولاد او يميل العزوبة والابتعاد عن الناس

وفي حياة الافراد احوال كثيرة تابعة لنواميس وقوانين مقررة يمكن الانباء بما تؤول اليه وهي كل ما يتعلق بالنمو والارتقاء والبنية والوظائف

واشغف الناس بمعرفة الحوادث المتغيرة يهملون الحوادث التي تجري على وتيرة واحدة حاسبين اياها امرًا اعتياديًّا مألوفًا . فاذا طالعوا سيرة امرء نظروا الى اعماله الخارجية من الطوارىء المتغيرة وذهلوا عن اخلاقه واميالهِ وكيفية شؤنها والادوار المختلفة التي تقلبت عليها مع ان اعماله ليست سوى نتيجة عن تلك الاخلاق والاميال . وما يصدق على تاريخ الافراد يصدق ايضاً على تاريخ الممالك . فمطالعو تاريخ الرومانيين مثلاً يكتفون باخبار فتوحات قيصر وانتصارات بتلوس وسيبيو وغيرهم من القواد المشهورين وبحكم شيشرون وخطابة شيشرون ويهملون درس تاريخ الرومانيين الاجتماعي ومعيشتهم العائلية ونظامهم السياسية والعسكرية التي لولاها ما غزا قيصر ولا انتصر سيبيو ولا فاه شيشرون ببنت شفة

ولبيان المراد من علم الاجتماع الانساني نقول ان اجتماع الناس معاً حتى تكون منهم امة كبيرة يستلزم ان يكون لهم نظام ما يجرون عليهِ . فاذا كانوا قبائل صغيرة متفرقة لم يكن فيهم آمرٌ ومأمور بالمعنى الشائع عندنا اي لم تكن السلطة محصورة في فريق منهم . ولا تبتدىء الرئاسة فيهم الاَّ اذا اجتمعوا قبائل كبيرة وهذه القبائل لا تقوى ولا تنمو الاَّ اذا كان لها رؤساء يعززون شأنها واذا كبرت القبيلة بالنمو او بالتغلب على غيرها من القبائل والتزاجها بها نمت القوة الحاكمة فيها باضافة القوات التي ضمتها اليها اي ان الناس يكونون متساوين وهم متفرقون فاذا لُمَّ شعثهم وانتظموا امة واحدة او قبيلة واحدة ظهر عليهم التباين بينهم فصار منهم الرئيس والمرؤوس والآمر والمأمور وهذا من الامور المعروفة بداهةً وهو حقيقة علمية لا ريب فيها بل هو صفة في المجتمع الانساني ناتجة عن صفة في افراده فان الاختلاف اول شيء يظهر في الجسم الذي يتولد منهُ جسم آخر فتمتاز بعض الاجزاء عما حولها ثم يتولد الجسم الجديد منها

والاختلاف بين الرئيس والمرؤوس في القبائل التي لم تزل على السذاجة قليل جداً فيصيد الرئيس بنفسهِ مثل مرؤوسيهِ ويهتم بسائر امورهِ كما يهتم كل واحد من مرؤوسيهِ واذا نشبت الحرب

حارب مثلهم بنفسهِ ولو امتاز بالسلطة عليهم

ثم اذا ارتقت القبيلة تعززت سلطة رئيسها فيفرض على مرؤوسيهِ فريضة تقوم بمعيشتهِ فيستغني على العمل بيديهِ وكلما ارتقت القبيلة تجدَّدت سلطة الرئيس فعوضاً عن ان يكون الملك والقائد والقاضي والكاهن في آنٍ واحد يعين نواباً عنهُ لقضاء هذه الاعمال المختلفة . وكلٌّ منها تصبح ادارة مستقلة وتتجزأ اعمالها وتصير ادارات خاصة

بقي علينا امرٌ آخر يجب ايضاحهُ وهو العلاقة بين البناء والارتقاء وكيف ان بناء الشيء يساعد ارتقاءهُ الى درجة معلومة ثم يوقفهُ بعدها . فلا يخفى ان بين البناء والارتقاء علاقةً مهمة جداً نراها في جميع انواع الحيوان وخصوصاً في العليا منها وهي ان البناء يميل الى التمام عند ما يتوقف النمو . فالحيوان في حال نموهِ تكون عظامهُ غضروفيةً وعضلاتهُ ليفة وكذلك سائر اعضائهِ وحينما يبلغ النمو حدَّهُ تتصلب العظام وتشتد العضلات . ولا ينمو الحيوان ما لم يتنفس ويأكل ويفرز فضلات جسمهِ وهذه الوظائف تقتضي وجود الاعضاء اللازمة لها وهي تنمو بنمو الحيوان لان المدة التي كانت تكفي لتغذية الولد الصغير لا تعود تكفي لتغذية الرجل بل يلزم هدمها وبناؤها ثانية . وكلما كان بناؤها الاول تاماً زادت الصعوبة في هدمها وبنائها ثانيةً . مثال ذلك عظمة الساق في الاولاد فبين رأسيها والقسم الاسطواني منها غضروف يطول ما دام الجسم ينمو ولا يتصلب ويصير عظماً الاَّ متى توقف نمو الجسم مع انهُ لو صار عظماً قبل ذلك لتوقف نمو الساق . او بعبارةٍ اخرى ان البناء لازمٌ للنمو الى درجة معلومة فاذا زاد عنها اعاقهُ

ولنضرب لذلك مثلاً مادياً في الامور الاجتماعية . فاللغة العربية لغة محكمة بقوانين وضوابط وكتب كثيرة فاذا أُريد ابدالها باللغة العامية او بلغة اخرى غريبة لزم نزع ملكتها من النفوس ونزع كتبها وكل علاقاتها باحوال المتكلمين بها وذلك امر كبير متعذر فلو كانت لغة بربرية لا خطَّ لها ولا كتب فيها لسهل تغييرها في اعوام قليلة

وما يصدق على الامور المادية في الهيئة الاجتماعية يصدق ايضاً على النظامات التي هي قوام الهيئة — فالحكومة المصرية مثلاً حكومة منتظمة ولها قوانين ونظام خاص بها فلو أريد ادخال النظام الالماني او الروسي اليها مثلاً لاقتضى ذلك هدم النظام الحاضر وابدال سجلاتها ورفت مستخدميها وتغيير شرائعها ثم انشاءها مرة ثانية بحسب النظام المراد ادخالهُ . بخلاف ما لو اريد ادخال هذا النظام الى بلاد حديثة التمدن فان ادخالهُ يكون سهلاً لعدم الاحتياج الى هدم النظام السابق التام البناء والكثير الاجزاء

وبديهي ان البحث في كيفية ارتقاء الشعوب وفي كون البناء لازماً تطلب درجة معلومة فاذا زاد عنها اعانهُ لا يدخل ضمن التاريخ بل هو من متعلقات علم الهيئة والجيا . وكثيرون ينكرون فائدة هذا البحث ويكتفون بدرس التاريخ . نعم ان التاريخ مهم جداً ولكن لا يكفي درس حقائقهِ وحدها بل يجب النظر إلى اسبابها ونتائجها . فاذا اراد مشترع ان يسنّ قانوناً فعليهِ ان يدرس تاريخ ارتقاء الشعب واميالهِ ونظاماتهِ لمعرفة ما اذا كان القانون المراد سنهُ يساعد على تقدم ذلك الشعب او يكون سبباً في تاخرهِ . ولما كان علم السيولوجيا مبنياً على حقائق التاريخ كان درسهُ صعباً جداً لان الحوادث التاريخية لم تكتب مجرّدة عن الاميال والاهواء كما ينبغي .

اخلاق الكوريين

الاعياد

يعيّد الكوريون اليوم الاخير من السنة والاسبوع الاول من السنة التي بعدها . واليوم الخامس عشر من الشهر الاول ويسمونهُ عيد الهلال ويأكلون حينئذٍ طعاماً مصنوعاً من التمر والكستنا والعسل والارز يسمى طعام الطب ويزعمون انهُ مقوٍ للاعصاب وللدماغ

ويعيدون اليوم السادس عشر من الشهر الثاني ويسمونهُ عيد الفراش والثالث من الشهر الثالث ويسمونهُ عيد الازهار وفيهِ يصنع الشبان افراحاً من الازهار والحنطة والارز . واليوم الثامن من الشهر الرابع ويسمونهُ عيد اغسال بوذه وفيهِ يوقد مصباح من الشمع في كل بيت لكل نفس من سكانهِ ولا يجوز فيهِ وقد الشموع المصنوعة من الشحم لان بوذه لا يحل قتل الحيوانات . ويذهب الناس في ذلك اليوم الى هياكل بوذه ويقدمون اليهِ التقدمات

ويعيدون اليوم الخامس من الشهر الخامس ويسمونهُ يوم الارجوحة وفيهِ تعنى النساء بالاشجار ويرتجح فيها الصغار والكبار ويلبس الصبيان احد ثيابهم واليوم الخامس عشر من الشهر السادس ويسمونهُ عيد غسل الشعر يعيدهُ كل الناس ماعدا العمال . واليوم السابع من الشهر السابع وهو عيد عام لجميع الناس ويقال في اصلهِ ان نجمة من بنات الحمة اقترنت بنجم آخر وكانت ضاع البدئ قبل اقترانها فاصبحت مكسالاً بعدهُ فغضب عليها ابوها ونفاها الى شرقي المجرّة وجعل حرفتها حوك الانسجة وبعث بزوجها الى غربي المجرّة وجعل حرفتهُ